

الجوارى السميرات

طبقة خاصة

من الجوارى صنف آخر قد لا نفطن إلى وجوده في عصرنا الحاضر ، وهو مزيج من ذلك النوع الذى رأيناه في الحانات المغالى في الفتنة وفي خدمة الزين : ومن النوع الآخر الذى يعيش في منازل الأسياد حياة الحرائر أو ما يشبه حياتهن ، ومن النوع الثالث الشائع الذى يعرض في أسواق النخاسين . النوع الآخر الخليط من هذه الأنواع كلها ، والذى يطلق عليه اسم الجوارى السميرات يتألف عامة من القيان البارعات في الغناء والرقص وفنون الغواية . يعشن في كتف أسيادهن عيشة تراوح بين عيشة أمثلهن في عهدة النخاسين والمتسرين . ليس لأصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف ، وليس في صدورهم حمية المولى المتفرد بسراريه ، فهم يسمحون لهن بالخروج إلى الناس والزائرين أو المرابطين — كما كانوا يقولون بلغة ذلك العصر — وهؤلاء يفقدون في ساعة معينة من النهار أو الليل ، فيجلسون إليهن ويصغون إلى غنائهن ، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع ،

وجمالهن المانع ، والسيد يتلطف في فرش المنزل بالبسط الغالية ،
والنمارق المزركشة ، ويوزع الطنافس في الزوايا ، ليسترريح
عليها هؤلاء المرابطون . وهو يتكلف لهم هذا العناء ، ويبش في
وجودهم لأنهم يحملون إليه الطرف والهدايا من أفخر الخمر ،
وأطيب الثقل ، وأندر العطور ، وشفيف النسج . وهم إلى جانب
ذلك يرون السيد أحياناً بالمال ، ويرفهون عنه بعض مشقة
الحياة . ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، من قضاة وحكام
وقواد وشعراء وتجار . وكل منهم يعطف على السيد صاحب
الحرارية أو الجوارى ، ويسهل له أموره ، ويحل له ما تعقد
منها ، ويساعده في قضاء حاجاته . يقصدون إليه من مكان
قصي ، كما يقصدون الخلفاء والأمراء وعظماء الرجال . فيزار
ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى
له ، ولا تقتضى منه الهدية . لا يهتم هذا القيان بغلاء الدقيق ،
ولا عوز السويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ . وهو
يستقرض ولا يرد ، ويسأل الخواج فلا يمنع . يكنى إذا
نودى ، ويفدى إذا دعى ، ويحبي بطريف الأخبار ، ويطلع
على مكنون الأسرار . ويكفيه أصحاب النفوذ من المتردين عليه
عادية الشرط والأعوان ، فيعيش مطمئناً (١).

المرابطون

يكتفى كثيرون من هؤلاء المرباطين الذين يفدون على منازل
القيانين في زياراتهم على السماع والنظر ، وتناقل الأخبار ،
وتطرح الشعر . ولعلمهم كانوا أيضاً يجدون فيها ما يجده المعاصرون
في صالات الأدب من متعة ، غير أن القدماء يضيفون إلى
وقار العلم والبحث الجدى بعض توابل الاجتماع من رقص وغناء .
وكان بعضهم يفرج في هذه الحلقات الأدبية الفنية عن نفسه ،
بعد أن حجزها طول نهاره في وقار عمله الرسمي ، فليس من الغرابة
في شيء إذا رأينا ابن فهم الصوفي عند سماعه غناء « نهاية »
جارية ابن المغنى يضرب بنفسه الأرض ، ويتمرغ في التراب ،
ويهبج ويذب ، فإذا دنا منه أحد عض بنابه ، وخمش بظفره ،
وركل برجله^(١). أو إذا رأينا ابن غيلان البزاز عند ما يسمع
ترجيعات « بلور » جارية ابن اليزيدى تنقلب حماليق عينيه ،
ويسقط مغشياً عليه ، فلا يستفيق إلا بعد أن ينضح بالكافور
وماء الورد ، ويقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين^(٢) أو إذا
رأينا أبا الحسن الجراحى قاضى الكرخ الوقور عند ما يسمع

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٦

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٧

غناء شعلة تبطل شيبته بالدموع حتى يرق له الحاضرون
فتنحدر دموعهم رحمة له ، ورقة عليه . فقد كانت هذه المجالس
تضم جماعات شتى ، متنوعة الأذواق ، متعددة المراتب والمقامات
الاجتماعية . يوحد بينهم حبهم للغناء ، ورغبتهم فى التملى من
الملاحاة الدافقة فى وجوه القيان . وقد أحصى أبو حيان التوحيدي
حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة السميرات على ضفتى دجلة ، فإذا
بهن يبلغن أربعائة وستين جارية ، يجمعن بين الخدق والحسن
والظرف والعشرة ، سوى من كان لا يظفر به ، ولا يوصل إليه
لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كان يسمعه ممن لا يتظاهر
بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثمل فى حال (١) .

ولقد وضع الجاحظ رسالة فى القيان ، كتبها على لسان
القيانين ، ووجهها إلى أهل الجهالة والحقاء وغلظ الطبع ،
وفساد الحس ، وأورد فى مطلعها جدولاً بأسماء
مشاهيرهم فى عصره ، وذكر فضائلهم ومقامهم الرفيع فى
المجتمع ، وسعى الناس فى خطب ودهم ، كعادته إذا أراد
أن يهزل فى أمر ، أو أن يسخر من جماعة . وبوسعنا أن نتمثل
بعض ما كان يدور فى مجالس السميرات من محاورات
ومساجلات ، ومن تحايل فى إدخال السرور إلى قلوب المرباطين ،

ومن إسراف في الشراب والتندر ، بأن نقف على ما حدث يوماً في مجلس منها ، اشتهر في المدينة ، وعرف بمجلس ابن نفيس .

مجلس ابن نفيس

كانت بصبص جارية ابن نفيس حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، أخذت أسرارها عن الطبقة الأولى . وكان مولاهما صاحب قيان ، يزوره الأشراف ، ويستمعون إلى فتياته ، ويفد إليه فتيان قریش في عهد الخليفة العباسي المهدي ، فينعمون بمجلس جاريته . وقد اجتمع أشراف المدينة عندها يوماً ، وتذاكروا أمر رجل يدعى مزید ، وهو صاحب نوادر في البخل ، حری أن يتحدث عنه الجاحظ ، فرعمت بصبص أن يوسعها أن تأخذ منه درهماً . فوعدها صاحبها بأن يحررها إن لم يشتر لها مخنقة بمائة ألف دينار ، وثوب وشي ، وأن يجعل لها مجلساً بالعقيق ، وينحرفه بدنة لم تقتب ولم تركب ، فيما إذا توصلت إلى الحصول على درهم مزید . فطلبت إحضاره ، وأن يكف عنها الغيرة مهما بدا منها ومنه . وجيء به عند العصر ، وكان المجلس عامراً بالأشراف ، فأكلوا وشربوا ، وتساكروا وتنادموا . فأقبلت الجارية بصبص على مزید فقالت : أبا إسحق . كأنك تشهى

أن أغنيك . فقال : زوجته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ . فغنته . ثم مكثت قليلا وقالت : أبا إسحق ! كأن نفسك تشهى أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبي وتداعبني وأغنيك . فقال : امرأته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام ، وما تكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض تموت . فانتقل إلى قربها فغنته . ثم قالت : برح الحقاء ! أنا أعلم أنك تشهى أن تقبلني شق التين ، وأغنيك هزجا . فقبلها وغنته . ثم قالت : أبا إسحق ! أرايت أسقط من هؤلاء . يدعونك ويخرجونني إليك ، ولا يشترون ريحانا بدرهم . أى أبا إسحق ، هلم درهما نشتري به ريحانا . فوثب وصاح : واحرباه . إى . . . انقطع والله عنك الوحي الذى كان يوحى إليك . وعطعت القوم بها ، وعلموا أن حيلتها لم تنفذ عليه . ثم خرج ، فلم يعد إليها ، ورجع القوم إلى مجلسهم ، فكان أكثر شغلهم فيه حديث مزيد معها والضحك منه (١).

السميرات اليونانيات

كان فى بلاد اليونان فئة من الجوارى شبيهة كل الشبهة بهؤلاء . فئة تتألف من مجموعة كثيرة العدد من الفتيات البارعات

(١) الأغاني ج ١٢ ص ١١٦ - ١١٧

في جمالهن وأدبهن وظهرهن ، يشاركن في كل علم ، ويأخذن من كل فن بطرف . ينعمن في البلاد اليونانية بحقوق وامتيازات لا تنعم بها النساء الحرائر . فهن يجلسن إلى الرجال سافرات الوجوه ، ويتحدثن إليهم ، ويحاورنهم في المواضيع الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية ، ويستأثرن بعطفهم وحضورهم ساعات مديدة من النهار والليل ، وينظمن منازل خاصة بهن ، يستقبلن فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتعدد منازعهم وبلدانهم وأذواقهم وألوانهم . ويتفننن في تزيين خدورهن بالطرف والمتاع النفيس ، ويسهر القانون على راحتهن ، وينظم حياتهن ويشجعهن في عملهن .

مرد الأمر ، كما يرى بعض المؤرخين ، أن المشرع اليوناني ، عند ما أذن لهؤلاء السميرات باحتراف مهنتهن علناً ، على رغم ما تؤدي إليه تجارتهن من تهديم الأسر ، ونشر الفوضى في المنازل الزوجية ، حاول القضاء جهده على عادة مفسدة تفشت في جميع المدنيات المغرقة في الترف ، أي التدله بالغلمان ، هذه العادة الهدامة التي تسربت فيما بعد إلى البلاد الفارسية ، ثم انتقلت من هناك إلى مدينة العرب . لعل هذا كان السبب الرئيسي في انتشار بيوت السميرات ، وفي محافظة الشرع عليها ، وذيوع هؤلاء الجوارى في الحياة الاجتماعية الإغريقية .

هن عادة نخبة تختار من جماعات الجوارى . يعهد بهن
 صغيرات إلى نساء ماهرات فى تربية أمثلهن ، واقفات على
 أنواع الغواية ، وأسرار الفنون الحميلة ، ولا يفارقن معلماتهن
 إلا بعد أن يحدقن جميع ما يحتجن إليه فى حياتهن المقبلة .
 يقد عليهن الفتيان الذين يطمحون إلى التعرف على ذوى
 المقامات الرفيعة ، ويتردد عليهن أيضاً الرجال الذين جازوا
 نصيباً من المقام ورجال الشرع والفلاسفة ، وكل من ينعم
 بدخل ثابت . فكل من له حظ من النفوذ ، أو يسعى ليكون
 له بعض المقام يحاول جاهداً أن يكون له مجلس فى منزل من
 منازل السميرات ، من الزعيم السياسى الوقور إلى الأفاك
 المغامر ، وما يتراوح بينهما من أجناس الأناسى وألوانهم . فتزدحم
 القاعات بالفيلسوف الزرى المظهر ، والتاجر الصورى ، والنوى
 الخفاف الطباع ، الملوح الوجه ، الحشن اليدين ، الذى يحلى
 أصابعه القاسية بالخواتم الثمينة من صنع سورية وفينيقية ،
 والسرى الأحرق الذى يضجى بثروته مقابل ابتسامة تنفرج عنها
 شفتا الغانية ، والمصارع المجدول العضلات الذى يحدث الصخب
 عن نتائج الأولياد ، ويمنى النفس بانتصارات باهرة فى مقبل
 الأيام . وكان اليونانيون ، وهم مشهورون بحب التطلع ، والوقوف
 على ما يجرى من الحوادث ، مغرمين بالوفود على مثل

هذه الاجتماعات حيث يتلاقى الشرق والغرب والرصانة المغالية في الائتاد ، والطيش المتطرف في التهور .

ينفق الضيوف في هذه البيوت على قدر استطاعتهم من مالهم ولطفهم في إيناس السميرات . ولم تكن الزوجات الشرعيات في فهم هؤلاء إلا الحافظات على المنزل ، القيمات على المتاع ، المخلدات لاسم الأسرة بما ينجبهن من الأولاد في سبيل الجمهورية الخالدة .

الحياة في مجالس السميرات زاخرة بالحديد من كل فن وعلم . تمتاز فيها الأنغام بالرقص ، وتهرق الحمرور المعتقدة ، ويشيع فيها المرح ، وتضيع الفروق العرقية ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويتعالى دخان البخور ، وتسكب العطور على الوجوه والنحور ، وتبدى السميرات القليل الذي بقي خافياً من أسرار جمالهن . وتتشابك أحياناً أحاديث العلم بالجدل السياسي والفلسفي . والسميرات العارفات بفنون الكلام ، الحافظات لأشعار الأقدمين والمحدثين يوشين أحاديثهن بما في ذاكرتهن منها ، ويرتجلن أحياناً أبياتاً تناسب المقام ، مما يحول تلك المجتمعات إلى حلقات ثقافية نادرة المثال . ولهذا أسرف رجال الفكر والعلم واللغة في التردد على السميرات للتمتع بمطالعهن ، والإصغاء إلى ما يدور هناك من المباحث البارعة .

كانت علاقات هؤلاء بالسميرات بريئة أحياناً ، لأنهن كن يحصرن قلوبهن وفتنتهن الكاملة في الذين ينفقون عليهن الأموال ، ويبذلون في سبيلهن كل ما يشأن ، فيقضون القسم الأوفر من وقتهم في منازلهن ، ويشتركون في حلقات الطرب والأدب وينظرون إلى تراحم الضيوف حول ربة البيت وسعيهم إلى اكتساب عطفها ، دون أن تتأثر في نفوسهم أوتار الغيرة . فالسميرة كانت إذن كناية عن زوجة ثانية ، ولكنها أكثر علماً ، وأرشق حركة ، وأبرع جمالاً من تلك التي تنزل في الحدر . وأبناؤها يتبناهم الرجل المسؤول ، ويضمهم إلى أولاده الشرعيين .

مآدب السميرات

أهم الأدوار التي يقوم بها هؤلاء السميرات اشتراكهن في الاحتفالات والمآدب التي تختلط فيها فنون الغواية بالأدب الرفيع ، والإسراف في الطعام والشراب بالبراعة في الرقص والألعاب البهلوانية . وفي الولائم يتناول اليونان أحاديث السياسة والفن والأدب وأخبار الفتوح ، ويفصلون النظريات الفلسفية الشائعة ، ويتناشدون القصائد ، ويبدى كل من الشرب أقصى ما في نفسه من براعة ، ليفتن الحاضرين ، ويسترعى انتباههم .

تقام الولائم عادة عند المساء في المنازل الخاصة، وتزين قاعة الطعام بالغصون الخضراء ، وتنثر الزهور على الأرض ، وتوقد الشموع ، وهي بشكل ثريات تقوم على عمد مركزة بالأرض على قاعدة مثلثة الأقدام ، وتضاء إلى جانبها سرج الزيت أو توزع في أنحاء القاعة . وعند ما يبدأ الضيوف بالوفود يقف العبيد والحواري عند المدخل لاستقبالهم والترحيب بهم ، فينزعون أحفافهم ، ويغسلون لهم أيديهم وأرجلهم في آنية من الفضة أو الذهب ، ويعطرونهم بالروائح الطيبة ، ويجعلون على رؤوسهم أكاليل الزهر .

من تقاليد هذه الولائم أن لا يتوجه المدعو رأساً إلى قاعة الطعام ، بل أن يبدأ بالتفرج على غرف البيت ، إلى أن يصل عرضاً إلى المائدة ، فيبدي عندئذ إعجابه الشديد بما يراه من ترتيب وتنظيم ، ومن رياش فاخر ، وزهور عطرة ، وأنوار مشعة ، وأسرة منتظمة . ويتقدم فيأخذ له مقعداً حول المائدة ، وهي مستطيلة قائمة الزوايا من الخشب الصقيل ، عارية من الأنماط ، أما المقاعد فهي على أنواع : منها المفردة ذات المساند المرتفعة ، يرقى إليها المدعو بدرجة أو اثنتين ، ومنها المفردة البسيطة ، ومنها أسرة مستطيلة ، وهي عادة ثلاثة مقابلة لجهات ثلاث من المائدة ، وتترك الرابعة لتقديم ألوان الطعام .

يتسع كل واحد منها لثلاثة أشخاص أو أربعة فيتمدد عليها المدعوون ، ويتكئون على الذراع اليسرى ، ويتناولون ما يشاؤون باليمنى ، وتفصل بينهم مساند مغطاة بالنسيج النفيس الموشى . وقد اقتبس اليونان عادة استعمالها عن الشرقيين ، ولا يعرف تماماً تاريخ انتقالها إلى المنازل الإغريقية ، ومن الثابت أنها كانت شائعة فى المآدب العامة أيام أرسطو . أما المدعوون المتقدمون فى العمر أو النضج ، فكانوا يؤثرون بالجلوس على المقاعد العادية أو البقاء وقوفاً .

يجعل بين أيدي المدعوين الممتازين كؤوس كبيرة محلاة بالذهب ومزينة بالنقوش ، وتنقل أحياناً من مدعو إلى آخر ابتداء من اليمين ، فيشرب كل منهم بدوره . أما الطعام فهو متعدد الألوان ، لأن الإغريق عرفوا جميع الطيبات التى يلد بها المعاصرون ، فتزخر موائدهم بلحوم الخنزير والجدى والماعز والأرنب والأوز والبط والدجاج والحجل والحمام والسمانى وسواها . غير أنهم لم يعرفوا السكر فى صنع الحلويات والمربيات ، بل استعاضوا العسل عنه . وأما الخمور فكثيرة الأنواع لديهم ، يمزجونها أحياناً بالثلج الذى يستقدمونه من أعالي الجبال ، أو يدلونه فى الجرار المملوءة به إلى أعماق الآبار الباردة .

لم تكن الأطعمة التى تقدم للزائرين سائلة ، ولا تستعمل

على الموائد إلا ملعقتان اثنتان كبيرتان ، يسكب بالواحدة الطعام في الأطباق ، وتعرف بالثانية الحمرة من الأباريق لتوضع في الكؤوس . يتألف الطعام في مثل هذه الولائم من ثلاثة ألوان : الأول من الخضر ، ولا سيما القنبيط ، ومن الصدف والبيض ، والثاني من الطيور الداجنة وطرائد الصيد ، والثالث من الحلويات والسكريات والفواكه . وتقدم كل هذه الألوان مقطعة مجزأة ليسهل تناولها باليد ، لأنهم لا يستعملون الشوك والسكاكين . وعند تقديم اللون الثالث تبدأ المنادمة ، فتقبل عندئذ ، الجوارى الموسيقيات والمغنيات والراقصات ، وقد طلن وجوههن بالمساحيق ، وسودن عيونهن بالكحل ، وأطلن أشفار الجفون وصلبنها باستعمال مسحوق المسك ، وأخذن بأيديهن القيثارات والنايات فيبدأن بالرقص والغناء والضرب على الآلات أو النفخ فيها . وأشهر هؤلاء الجوارى هن اللواتي يلعبن على القيثارات الصغيرة ، ويرافقن نقرها بألحانهم ورقصهن . ولم يكن يتوصل إلى إجادة هذه المهنة إلا السميرات المدربات المخرجات على أيدي الاختصاصيين . يرتدين الأثواب الموشاة برسوم الزهر الخاصة بهن وحدهن ، وهى عادة أثواب شفافة . وكن رشقات الحركة لمغالاتهن في التمرن والرياضة على فنهن ، بارعات في إبراز الهيئات المثيرة للشعور .

كانت الأجور التي تدفع لمن باهظة ، هذا إذا لم يكن ملك صاحب الدعوة أو صاحبها . ويعاونهن جوار من نوع آخر . ينتسبن عادة إلى جزر الأرخيل أو إلى البلاد السورية ، فيرسمن بأقدامهن وكل عضو من أعضائهن في مخيلة المدعووين صورة مثيرة . وتكاد ثيابهن المجزومة الشفافة لا تخفى شيئاً من أسرار أجسامهن . وفي غمرة ثورتهم الفنية يتوصلن إلى فك العقدة التي تضم شعورهن فتثّر سوداء على أكتافهن البيضاء ، وحل العقدة الثانية التي تربط الغلالة المطيفة بأجسامهن ، فيظهرن عاريات ، وينطرحن على رخام القاعة وهن في حالة من السكر الفني . وقد ترقص الجوارى أحياناً مترافقات حسبما يرغب المدعون أو يشاركنهم بعضهم . وتقوم أخريات بحركات بهلوانية أثناء الرقص والغناء ، فيرقصن على لوحة من الخشب ، غرزت فيها رؤوس حادة من المعدن ، فيختلن بخفة بحيث لا يبدسن على المسامير ، وترافق الموسيقى الموقعة جميع هذه الأنواع من الرقص . في هذا الجو المملوء بالعطور وروائح الحمرة والمساحيق والأطعمة كان الرجال يكشفون عن صدورهم ، يستلقون على الوسائد ، وأجسامهم تلمع من الزيت المعطر أو العرق المتصبب منهم ، وتقطر من شعورهم العطور المهركة عليها . وفي هذه الأثناء ، يتسرب إلى قاعة المأدبة أناس غرباء متطفلون ،

فيشتركون في الشرب والرقص والغناء .

من عادة المدعوين الانصراف أحياناً إلى بعض الألعاب ، ولا سيما ذلك النوع الأثير عندهم في مثل هذه الحالات ، وهو يقوم على قذف ما تبقى في كؤوسهم من الخمر إلى ناحية في الغرفة ، متخذين من أحد الأوعية هدفاً لثمالاتهم ، فتمتلئ أرض القاعة بالشراب المسفوح . ويسيل إلى العتبة لأن السكارى يخطئون غايتهم .

عند ما يبلغ الخمار أوجه ، يتبارى الشرب في استمالة الراقصات ، فيتوزعنهن ، ويحدث أحياناً ما ليس من حدوثه بد . ولا يطلب الذين غالوا في شربهم من هؤلاء السميرات إلا أن يقدمن لهم إناء يرجعون فيه ما طعموه وشربوه . وكل هذا يحدث أمام أنظار الجميع ، دون أن تثير هذه المشاهد أنفة أو خجلاً . وعند ما يتنفس الفجر يتسلل بعضهم إلى منازلهم ، ويبقى الآخرون غارقين في سبات عميق . وهذه المجالس كانت محرمة على الحرائر ، فتقتصر على الرجال والحواري .